شعر الزهد في الأندلس
خلال القرن الخامس الهجري

الدكتورة زينب بوصبيعة

جامعة الأمير عبد القادر-قسنطينة

الزهد أصل ومعنى: الزهد عبادة وطاعة، وترك للدنيا، أول خطواته الورع، وعلامتـــه الابتعاد عن السيئات وتجنب الشهوات، والقناعة ثمرة من ثمراته، وعلامتها الرضا والشكر.

والزهد: كلمة جامعة لمعان كثيرة، نجملها في قولهم هو ترك كل شيء لا ينفع في الدار الآخرة، وثقة القلب بما عند الله[1]. والزاهد في الدنيا محبوب من الله والناس، لأنه لا ينطـــق إلاّ بالحكمة، ولا يعمل إلاّ العمل الصالح، ويزداد فضلا إذا عمل على نشر ما تعلمه وآمـــن به عن الدنيا وحقارتها، والآخرة وعظمتها، ويقدم ذلك على سبيل الوعظ والإرشاد لنـــشر الخير والفضيلة بين الناس، ولما كان الشعر أقرب إلى النفوس، اتخذه بعض الشعراء أداة لهذه الغاية.

---

1 - رسالة الزهد والورع والعبادة: ابن تيمية، تح: حماد سلامة، شركة الشهاب، الجزائر، دت، ص74

نشأته: لم يكن شعر الزهد مقصورا على أمة من الأمم، ولا على عصر من العصور، لأنّه مرتبط بجوهر النفس التي تترع بفطرتها السليمة إلى الفضائل، وتسمو بإنسانيتها إلى أرقى المراتب وأعلى المنازل. ولقد نشأ الشعور الديني عندما أدرك الإنسان قمة ضعفه وعجزه أمام قوة الخالق وعظمته، تلك القوة التي شاهدها مجسدة حوله في الكون، فحفلت الآداب القديمة بالكلمات التي أصدرها الإنسان تقربا وتضرعا إلى الآلهة لحماية ماله وحياته[1].

ونزعة التدين فطرية في الإنسان، كما جاء في القرآن الكريم: "فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ"[2]، ومن «العسير أن نجد أدبا لا يعبر عن عقيدة ما رغم تباين هذه العقائد واختلافها...»[3]، ناهيك عن أمة تشبعت بالقرآن، ورضعت من تعاليم الإسلام، وعلمت أن الدنيا زائلة، وأن الآخرة خير وأبقى، والمؤمنون يؤثرون ما وعدوا به في الدار الأخرى على ما بين أيديهم من حطام الدنيا[4]، عملا بقوله جلّ شأنه: "وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا"[5]، وقد كان معلمهم وأسوتهم محمد" أحسن مدرسة في الزهد والنسك، ومن ثم أصبح الزهد لدى المسلمين نزعة أصيلة فيهم، وقيمة من قيم دينهم الحنيف، ووجد طريقة إلى جميع الأقطار الإسلامية، ونشأ نشأة إسلامية كما دعا

---

1 – أحمد سويلم: الشعر الديني عند قدماء المصريين، مجلة الكاتب، ع217، مايو 1979، ص46.

2– الروم/ 30.

3– نجيب الكيلاني: الأدب الإسلامي وقضية الإبداع، مجلة الأمة، ع58، س5، ص15.

4– نجيب الكيلاني: الأدب الإسلامي وقضية الإبداع، مجلة الأمة، ع58، س5، ص15.

5– الإسراء/ 19.

إليها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة[1].

والشعر الأصيل هو الذي يحمل وظيفة كبيرة، ويدعو إلى فكرة عظيمة، أو يدافع عن عقيدة صحيحة بالكلمة المبدعة التي تشع بالنور، وتضيء الصدور بالإيمان القوي، فتشحذ الغرائم، وتبتعث الحياة فيمن أماتتهم شهوات الدنيا، فصاروا دمى وتماثيل لا تحركهم سوى الأطماع والمنافع. والمؤمن هو من يسعى إلى مقاتلة جاهلية نفسه وعصره، منتهجا الأسلوب الرباني، ممتثلا لقوله: "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ"[2].

والأندلس الإسلامية، عرفت حياة الرخاء والسعة، وشاع فيها المجون، وانغمس الناس في حياة اللهو والترف، كما عرفت كذلك الأتقياء الصالحين المستمسكين بدينهم، أولئك الذين أخذوا بالزهد في الحياة، فانصرفوا عن الدنيا ومتاعها، وعاشوا مبتهلين إلى الله، متطلعين إلى ما وعد به الصالحون، فدعوا إلى الآخرة، ورغبوا في الثواب، وذموا الدنيا ونفروا منها[3]، وكثر الزهاد، وأصبح الزهد صناعة مطلوبة ومرغوبة لدى شعراء الأندلس، فنظموا فيه وأطنبوا، وأحسنوا وأجادوا[4].

وأول ما تجدر الإشارة إليه هو أن الشعراء الأندلسيين كانت نفوسهم مهيئة لهذا اللون من الشعر، بحكم ثقافتهم القائمة على حفظ القرآن الكريم، والعناية بالعلوم الشرعية، إذ كانت الدراسات الأساسية عندهم تقوم على ركنين أساسيين هما:

*الدراسة الإسلامية والعربية[5]، فتضلعوا في اللغة لأنها وسيلتهم لفهم القرآن الكريم

---

1 - مي يوسف خليف: التيار الإسلامي في القصيدة الأموية، دار الثقافة، الفجالة، 1993، ص522.

2 - النحل/ 125.

3 -جودت الركابي: في الأدب الأندلسي، دار المعارف بمصر، ط3، ص47-48.

4 -بطرس البستاني: أدب العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، دار الجيل، بيروت، دت، ص62.

5 -ابن خلدون: المقدمة، مطبعة الأميرية، بولاق، ط3، 1320هـ، ص542-543.

وتعمق معانيه، وصدر شعرهم عن قيم إسلامية دعمها النقاد بمساهمتهم في توجيه الشعراء نحو الدين والأخلاق، وحكموا الدين في تذوق الشعر والحكم عليه، والصدور عنه[1].

أسباب انتشاره في الأندلس: ولد شعر الزهد في الأندلس في أحضان الثورة على الحكم الربضي (ت206هـ)[2]، هذا الأمير الذي عرف بمجالسة الشعراء والندماء، والإقبال على مجالس الرقص والغناء حتى ساءت العلاقة بينه وبين الفقهاء، فنظم الشعراء الأتقياء شعرا في الزهد ضمنوه التعريض به والتحريض عليه، وكانوا يتغنون بتلك الأشعار ليلا، ثم أخذ هذا اللون من الشعر يقوى ردّا على الحياة اللاهية في المدن[3]، وانقيادا لدواعي النفس المؤمنة.

وقد كان له شعراؤه أمثال: يحيى بن الحكم الغزال (ت250هـ)، وابن عبد ربه (ت322هـ)، وابن أبي زمنين (ت399هـ)، وغيرهم ممن ذموا الدنيا ودعوا إلى الالتفات إلى الحياة الآخرة، وحضوا على العمل الصالح باعتباره الوسيلة لنيل رضا الله".

ومما قاله ابن عبد ربه في ذم الدنيا وتصوير غدرها:

ألاّ إنّما الدّنيا غضارة أيكة   إذا أخضرٌّ منها جانبٌ جفّ جانبُ
هي الدارُ، ما الآمالُ إلاّ فجائع   عليها، ولا اللذاتُ إلاّ مصائبُ[4]

وقد رهبوا من الدنيا وحذروا من غدر الأيام وتقلب الأزمان، فصوروها في أبشع الصور وأفظعها؛ فهي البحر الطامي، الذي لا ينجو منه إلاّ من أخذ بالكفاف والزهد، وفي

---

1 -المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، 1949، ج1، ص206.

2 -ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط2، دت، ج1، ص38.

3 -إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي- عصر سيادة قرطبة، دار الثقافة، بيروت، ط6، 1981، ص127.

4 -بطرس البستاني: أدباء العرب، ص62.

ذلك يقول ابن أبي زمنين:

آيّها المرءُ دنياك بحـــرٌ طامحٌ مُوجه فلا تأمنــــــــها
وسبيل النجاة فيه مبين وهو أخذ الكفاف والقوت منها[1]

وكثيرا ما ينظم هذا الشعر للوعظ والإرشاد، وتكون صورة الموت من أبرز الصور، لما لها من قدرة على تحريك المشاعر ودغدغة العواطف، ومما قاله ابن أبي زمنين في التحذير من الغفلة والتذكير بالموت:

الموتُ في كلّ حين ينشر الكفنا ونحن في غفلة عمّا يراد بنـــــا
لا تطمئن إلى الدنيا وزخرفهـــا وإن توشحت من أثوابها الحسنا[2]

وازدهر شعر الزهد في الأندلس لانتشار الفقهاء، وقوة ســـلطانهم، إذ حـــتى الخطبـــاء أصبحوا يستعينون بالنظم في تقديم خطبهم، قصد الحث على التقوى والزهد، لأن رســـالة القاضي هي الوعظ والإرشاد، وحمل لواء الإسلام، إنّه المكلف بتكوين أمة تدعو إلى الخـــير وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، ومن بين القضاة الشعراء، المنذر بن ســـعيد البلـــوطي (ت355هـــ) الذي اتخذ الكلمة الشعرية وسيلة للوعظ والإرشاد، فنظم في الزهد أشـــعارا توائم رسالته ووظيفته، فخاطب الشيخ اللاهي المغتر بدنياه بلسان الواعظ المرشد، مـــذكرا إيّاه بالموت، فقال:

كم تصابي وقد علاك المشيبُ وتعامَى عمدا وأنت اللبيبُ!
كيف تلهو وقد أتاك نذيــرٌ إنّ يومَ الحِمَامِ منك قريـــبُ
يا سفيها قد حان منهُ رحيلُ بعد ذاك الرحيل يومٌ عصيبُ
إنّ للموت سكرةً فارتقبهَـــــا لا يُدَاويكَ -إنْ أتت - طبيبٌ

---

1 -الثعالبي: يتيمة الدهر، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1956، ج2، ص71.

2 -تاريخ الأدب الأندلسي، المرجع السابق، ص117.

بأمور المعاد أنت عليـــــــمٌ　　　فاعلمن جاهدا لها يا رتيـــبٌ[1]

وعلى الرغم من أننا نلمس تكلفا وصنعة في هذه الأبيات، إلاّ أنّها تحمل رسالة نبيلة في دعوتها إلى الطاعة، وتحذيرها من الغفلة، والتذكير بيوم الميعاد، وهكذا فهي كلمات مسؤولة ملتزمة، مشحونة بالإيمان، والصدق العاطفي، مما يجعلها تلامس القلوب النظيفة، فتزيدها قوة وتدفعها إلى العمل الصالح. كما نجد القاضي ابن الفرضي (ت402هـ) يقف مع نفسه في خلوة مع خالقه وبارئه، فيناجيه متضرعا:

أسيرُ الخطايا عند بابك واقــفُ　　　وَجِلٌ مما به أنتَ عـــــــارفُ

يخافُ ذنوبا لم يغبْ عنك غيبُها　　　ويرجوك فهو راجٍ وخائـــــفُ

ومن ذا الذي يُرجى سواك ويتقى　　　وما لك في فصل القضاء مُخالفُ[2]

ويرتفع صوت الشاعر، وتزداد مناجاته عمقا وقوة، عندما يتذكر ظلمة القبر ويوم الحشر، عندها تحس معه بذلك القرب الذي تلغى فيه المسافات، وترفع الحواجز، لأنّه قريب من ربّه وخالقه، يدعوه ويرجوه، وبين الخوف والرجاء، يلوح الأمل، ويقول الشاعر:

فيا سيدي لا تخزني في صحيفـتي　　　إذا نُشرتْ يومَ الحساب الصحائفُ

وكنْ مؤنسي في ظلمة القبر عندما　　　يصدّ ذوو القربى ويجفو المؤالـف

لئن ضاق عني عفوك الواسع الذي　　　أرجّى لإسرافي فإني لتالـــــفُ[3]

إنّه المسلم المؤمن ، الذي لا يعرف اليأس إلى قلبه سبيلا، غير أن ذلك لا يمنعه من الإقبال على الأعمال الصالحة للفوز بالرضا والغفران.

مضامينه وأعلامه: وما إن جاء القرن الخامس الهجري حتى ازدهر شعر الزهد في

---

1 - أحمد الشرباصي: الخطابة في الأندلس، مجلة الأزهر، مج18، ج9، ص861.

2 - نفح الطيب، مج2، ص129.

3 - المصدر السابق، ص129.

الأندلس، ونظمه الشعراء إمّا بدافع واقعهم السياسي والاجتماعي، أو بدافع ديني أو تقليدي، حتى صار لدى بعضهم مذهبا أخلاقيا وأدبيا[1]، وظهر شعراء زهاد، انقطعوا للنظم في هذا الفن، لأنّ الإنسان المسلم عقدي أخلاقي بالدرجة الأولى، ومثل هذا الاتجاه الشاعر أبو إسحاق الإلبيري (ت460هـ)، الذي انقطع للقول في هذا الغرض حتى صار لديه ديوان كله في الزهد والمواعظ[2] ونجد إلى جانبه فريقا من الشعراء الفقهاء الذين اقتحموا هذا الغرض، وإن تفاوتت فيه مستوياتهم، ونذكر منهم على سبيل المثال: أبا الوليد الباجي (ت474هـ) وابن العسال (ت487هـ) وابن حزم وغيرهم، وقد غلب على شعرهم طابع الوعظ والإرشاد.

وهناك من الشعراء ممن لم يلجوا باب الزهد -في هذا القرن- إلا بعد أن ولّى عنهم عهد الصبا والقوة، وطرقت الكهولة والشيخوخة أبوابهم، فنظموا شعرا رقيقا في الزهد، بكوا فيه ذنوبهم، وتحسروا على ما فات من عمرهم، وانقضى من جدتهم في اللهو واللعب، وكان هذا الشعر لسان حالهم، يمثل عاطفتهم، ويعبر عن ندمهم وتوبتهم، ومن هؤلاء الشعراء: ابن خفاجة شاعر الطبيعة والجمال، الذي عشق الحياة، وهام بالملذات، لكنه أناب إلى ربه في آخر حياته، وخلد أنات وآهات توبته في شعر جميل، يذوب رقة وعذوبة، ويبعث في النفس حرارة الإيمان والتقوى، ورغم قلة أشعار الزهد في ديوانه، إلاّ أننا نستطيع أن نلمس فيها صدقا في المعاناة المعبرة عن خوفه من لقاء ربه بنفس مثقلة بالأوزار والآثام، وقد صهره الألم، وخلق منه رجلا حكيما، فراح يعظ ويرشد وينصح داعيا إلى عبادة الله وطاعته قبل فوات الأوان، ومما قاله ترغيبا في قيام الليل:

---

1 -إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، ص130.

2 -الديوان، حققه: رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر، بيروت.

طَوبى لعبدٍ قامَ خشيـــــــة ربّـــه   والليل قد ضرب الظلام رواقا
خضل المدامع خوف عرضةِ مالك   خضعَ الملوكُ له بها أعنـــــاقا[1]

وأخذت مضامين هذا الشعر ضروبا متنوعة؛ فمن الدعوة إلى ترك الدنيا وملـــذاتها، إلى الحض على التقوى والزهد، وذكر الموت والقبر والنار والجنة، إلى غير ذلك مـــن المـــواعظ والعبر التي ترسم ملامح هذا الشعر وتبين طبيعته.

وقد كان للخلفية الثقافية الإسلامية دور فعال في بناء هذا الشعر شـــكلا ومـــضمونا، ويتجلى ذلك في انتهاجهم أسلوب الترغيب والترهيب، وهو أحد أساليب الدعوة الإسلامية القادرة على إقناع النفس وردعها، لأن الإنسان -بطبعه- تتنازعه قوتان متناقضتان هما: قوة الخير، وقوة الشر، أو الهوى والعقل، وهما في صراع دائم، إن تغلب العقل ارتدع الإنسان، واستضاء قلبه بنور الإيمان، ونجا في الدارين، وإن تغلبت النفس، عميت البصيرة، وتـــردى صاحبها في مهواة الهلاك. لذا فالعاقل من راقب نفسه، وكبح جماح هواه، بمراقبته لله عـــز وجل بالطاعات والعبادات، والشاعر ابن حزم، الفقيه العالم، قد أدرك بقوة عقله أن اتبـــاع الهوى هلاك، فراح يذكر نفسه بالموت ويهددها بالهلاك إن هي اتبعت الهوى فقال:

أقول لنفسي ما مبين كـحـــــالك   وما الناس إلاّ هالك وابن هالك
صُن النفس عمّا عابها وارفض الهوى   فإن الهوى مفتاح باب المهالـــك
رأيت الهوى سهلُ المبادي لذيذها   وعقباه مرّ الطعم ضنك المسالك[2]

ثم دعا إلى التسلح بالإيمان ومعرفة الرحمن وانتهاج سبل الرشاد، مبينا أن أفضل طرقـــه الزهد والتقوى فقال:

1 --حمدان حجاجي: حياة وآثار ابن خفاجة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، دت، ص172.
2 --ابن حزم: طوق الحمامة، ص298-299.

ومن عرف الرحمن لم يعص أمره ولو أنّه يعطى جميع الممالـــك

سبيل التقى والنسك خير المسالك وسالكها مستبصرا خير سالك[1]

وتطغى العاطفة الإسلامية على هذا الشعر فتدفع الشعراء إلى الاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف، وقد وظفوا تلك المعاني توظيفا جيدا يخدم غايتهم ويحقق هدفهم، فهذا أبو إسحاق الإلبيري يقول في التحذير من الغفلة:

يأيّها النّاس خذوا حذركم وحصنوا الجنّة للنّار[2]

وقد تكثر اقتباسات الشاعر من القرآن الكريم، حتى تجد في كل بيت -تقريبا- معنى من معانيه الوضاءة، تلميحا أو تصريحا، ومما قاله في الوعظ والإرشاد، والدعوة إلى الإكثار من الدعاء والتسبيح لأن فيه خلاص الإنسان من الهموم والأحزان، وراحة النفس والقلب:

وناد إذا سجدت له اعترافا بما ناداه ذو النون بن متى

ولازم بابه قرعا عســـــاه سيفتح بابه لك إن قرعتا

وأكثر ذكره في الأرض دأبا لتذكر في السماء إذا ذكرتا[3]

وكان كتاب الله هو المصدر الأساسي، والمنبع الفياض الذي نهل منه هؤلاء الـــشعراء دون كلل أو ملل، وقد أقرّ بذلك الشاعر الحميدي فقال مفتخرا:

كلامُ الله عز وجل قـــولي وما صحتْ به الآثارُ ديني

وما اتفق الجميعُ عليه بدءا وعودا فهو من حقّ مبـــين[4]

إذن فشعر الزهد عند هؤلاء الشعراء ينبع من قلب استشعر عظمة الخـــالق، وعـــرف

1 -المرجع نفسه، ص299.

2 -الديوان، ص85.

3 -المصدر السابق، ص29.

4 -عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ج4، 1981، ص724.

ضعف النفس البشرية أمام مغريات الحياة الزائفة، فتاب وأناب، ودعا إلى الطاعات والأعمال الصالحة، وزين الطريق للراغبين في بلوغ المنازل العالية عند ربهم، والمتتبع لهذا الشعر يجد فكرتين قد سيطرتا على هؤلاء الشعراء هما: فكرة المصير وفكرة الحياة الدنيا.

أولا: المصير: أي مصير الإنسان بعد الموت، والذي أصبحت فكرته لا تفارق خيالهم، إنها تتجلّى من خلال صورة الموت المتكررة أمام أعينهم، يرونها كل يوم في الأهل والأصدقاء وعامة الناس، فأكثر الشعراء من ذكر الموت والقبر ووحشته، وبكوا الذنوب والمعاصي خوفا من العذاب ورجاء الثواب، وصارت صورة الشيب هاجسا من هواجس الموت، تنذر بقرب الأجل، وتهز النفس، وتثير فيها رعشة الخوف ورجفة الصحو، فحذروا وأنذروا، ورهبوا الناس مما ينتظرهم بعد الموت، وكثيرا ما تأتي صورة القبر ملازمة لذكر الموت في شعرهم، لأن القبر هو الملاذ والمقر، وذكره -غالبا- ما يكون للنصح والوعظ، ثم يأتي الحساب والعقاب، والجنة والنار لتكتمل أجزاء اللوحة المروعة الرهيبة، ومن تلك الصور هذه اللوحة التي رسمها ابن حمديس بقوله:

بيتُكَ فيه مصرعُكْ ... وفي الضريح مَضْجَعُكَ
غرتك دنياك التي ... لها شرابُ يخدعُك
همْتَ بحبٍّ فارِكٍ ... وقلّما تُمتّعك
يضرُّك الحرصُ بها ... والزهدُ فيها ينفعُكَ
لا تأمنن منيّة ... إنّ عصاها تقرعك
مغرِبُكَ القبر الذي ... يكون منه مطلعك

* * *

وللحساب موقف ... وأهواله تروّعك
فكيف بالنار التي ... من كل وجه تلذعك
يراك ذو العرش إذا ... ناديته ويسمعك

فثق به ولا يكن لغيره تضرعـــك[1]

وهكذا صاغت شفاه الشاعر هذه اللوحة، وكشفت لغته فيها عن دلالة الحياة والمصير، وقد استطاع الشاعر أن يستغل الكلمة في التعبير عن أجوائه النفسية، فهو قلق على مصيره، ومصير كل إنسان جاهل غافل، سكن إلى الدنيا فغرته، وألهته عن واجباته، وأنسته رسالته، وهنا تنبعث كلمات الشاعر من أعماق نفسه قوية علّها تهز النفـــوس وتحـــرك القلـــوب، وتدفعها إلى العمل قبل أن يدب فيها دبيب الموت.

وقد وفق الشاعر في رسم هذه اللوحة المتكاملة الجوانب، وأحـــسن اختيـــار حـــرف الروي، وهو "الكاف" الذي يعد من الحروف الانفجارية ذات الصوت القـــوي الـــشديد، ولعلّ إصرار الشاعر على قرع النفوس وبعثها من سباتها هو الذي دفعه إلى تكرار حـــرف "الكاف" ست مرات في البيتين الأول والثاني، كما وفق كذلك في اختيار القافية المقيدة لأنه يدعو إلى التقيد بالتوحيد والإيمان.

واللغة عند هؤلاء الشعراء فعل قصدي، يرمي إلى تحقيق هدف بعينـــه، هـــو النـــصح والإرشاد، قصد بناء شخصية مسلمة مؤمنة واعية بمسؤولياتها تخشى النار والعقاب، وتقبل على الطاعات والعبادات، لذا أكثروا من ذكر الموت والقبر، والتذكير بالحساب والعقاب، والجنة والنار، ومما جاء في ذكر هذه الأخيرة والتحذير منها قول أبي إسحاق الإلبيري:

ويل لأهل النار في النـــــار ماذا يُقاسُونَ من النار
تنقدُّ من غيظ فتغلي بهـــــم كمرجل يغلي على النار
يهوي بها الأشقى على رأسه فالويل للأشقى من النار
لا راحة فيها ولا فتـــــرة هيهات لا راحة في النار[2]

---

1 -الديوان، ص348.

2 -الديوان، ص85.

وهذه أبيات من قصيدة طويلة نظمها الشاعر على قافية "النار" عرض خلالها أهـوال النار ودرجاتها، وأحوال الناس فيها، وضمنها معان كثيرة من القرآن الكريم، فالبيت الأول مثلا يتضمن معنى قوله تعالى: "فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى. لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى"[1]، وقد وفـق الشاعر في التعبير والتصوير لأنه استطاع أن يدخل الرهب والرعب في القلوب، ويـدفعها للعمل الصالح.

ولعلّ تكرار لفظة "النار" في جميع أبيات القصيدة هو سر بلاغتها وتأثيرها العميـق في النفوس، أما الموت عند هؤلاء الشعراء فليس نهاية وفناء، وإنما هو بداية لحياة أخرى، تكون للجزاء والثواب، والحساب والعقاب، لذلك فهم إذا ذكروا الموت أو القبر، إنما يذكرونـه للتذكر والاعتبار والحث على العمل الصالح والإيمان القوي.

وعلى الرغم من ذلك يظل الموت نهاية أليمة، لكنها لا تثير في نفوسهم الشعور بالقلق والضياع، لأنّ مصير الإنسان عندهم ليس غامضا أو مجهولا، ومع ذلك تظل صورته مفزعة تثير في النفس مشاعر الحزن والخوف، ولكن هذا الخوف مصدره ومبعثه هو الشعور بقلـة الزاد وطول السفر، وحزنهم هو حزن النفس المقصرة الغافلة، ومن ثمة كانت صورة "النار" من الصور المرعبة التي تدفع بقوة إلى العمل الصالح، لأن خشية الإنسان من النار المحرقـة لا توازيها إلا رغبته في الجنة ونعيمها، لذا نرى ابن حزم يحذر من الغفلة بقوله:

تنبه ليوم قد أظلـــــك ورده ... عصيب يوافي النفس فيها احتضارها
تبرأ فيه منك كـــلّ مخالـط ... وإن من الآمال فيه انهيارهـــا
فأودعت في ظلماء ضنك مقرها ... يلوحُ عليها للعيون اغبـــرارها[2]

---

1 -الليل/ 14-15.

2 - ابن حزم: طوق الحمامة، تح: فاروق سعد، دار مكتبة الحياة-بيروت، دت، ص315.

ثانيا: الحياة الدنيا: إن ما يميز شعراء الزهد في هذا العصر والمصر، هو التفافهم إلى مجتمعهم ومشاركتهم في خدمته، إذ تحملوا رسالة الدعوة إلى الفضائل، وقد كان للدين الإسلامي دور بارز في صوغ تجاربهم الحية والمعبرة عما يختلج في وجدان الإنسان من مشاعر تتصارع بين الرغبة والرهبة، والأمل والرجاء، وبما أن القرآن الكريم يأبى الانحراف لاتباعه، فإنّه يدعوهم إلى الاستقلال عن كل المغريات الدنيوية، والترفع عما يحط من قيمتهم، أو يترلق بإنسانيتهم وكرامتهم: "إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ"[1]، لذا أقبل شعراء الزهد على موضوع الحياة الدنيا فحذروا منها ومن فتنها، ورغبوا في الآخرة لعلمهم بحقارة الدنيا وزيفها، وكانت فكرة الدعوة إلى الزهد في الدنيا من الموضوعات التي حملها إليهم إيمانهم برسالتهم في الحياة، وما بين أيدينا من شعرهم يعبر بحرارة وصدق عن تلك المعاني، ومن الذين أكثروا من ذم الدنيا، الشاعر أبو إسحاق الإلبيري، ومما قاله:

من ليس بالباكي ولا المتباكـــــي ... لقبيح ما يأتي فليس بزاك
نادت بي الدنيا فقلت لها اقصري ... ما عدّ في الأكياس من لبّاك

* * *

وما زلت خادعتي ببرق خلّـــب ... ولو اهتديت لما انخدعت لذاك
قالت: أغرك من جناحك طوله ... وكأن به قد قصّ في أشراكي
تالله ما في الأرض موضع راحة ... إلاّ وقد نصبت عليه شباكي[2]

والقصيدة طويلة، حاول الشاعر خلالها *أن يرسم صـــورة للـــدنيا، مـــبرزا بـــشاعتها* وحقارتها، وغدرها بمن يحبها ويسكن إليها، وهي صورة مستوحاة من القرآن الكـــريم، إذ

1 -محمد/ 36.

2 -الديوان، ص36.

قال جل شأنه: "وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ"[1]، وقد ألح الشاعر على إبراز هذه الصورة الفظيعة للدنيا، ووفق في ذلك إذ شبهها بالأم التي تغدر بأنبائها فتأكلهم بعد ولادتهم فقال:

لا كُنْتِ من أمّ لنا أكالـــــة   بعد الولادة ما أقلّ حياك!

ولقد عهدنا الأمّ تلطفُ بابنها   عطفا عليه وأنت ما أقساك[2]!

وبعد الترهيب من الدنيا، وإظهارها على حقيقتها؛ في تقلبها وغدرها، دعا إلى التقوى والإيمان، والإعراض عن الدنيا، مرغبا في الزهد فيها لأن الله تعالى يحب من عادى الـــدنيا وعاش عيشة النساك فقال:

لا عيش يصفو للملوك إنما   تصفو وتحمد عيشة النّسّاك

ومن الإله على النبي صلاته   عدد النجوم وعدّة الأملاك[3]

ويلح الشاعر في التعريف بحقيقة الدنيا، فيذكر بزوالها وفنائها، لتهون علـــى الـــنفس فتتخذها دارا للعمل والعبادة، وفي ذلك جاء قوله:

يا عامر الدنيا ليسكنها ومــــا   هي التي يبقى بها سكـــــان

تفنى وتبقى الأرض بعدك مثلما   يبقى المناخ وترحل الرّكبان[4]

ومن الشعراء الذين ذموا الدنيا أيضا، أبو القاسم بن فرج الإلبيري المعروف بالسميسر وكان كثير التبرم بالناس والدنيا، لذا أكثر من ذمها وألبسها أبشع الحلل، ومن شعره فيهـــا قوله:

---

1 -الحديد/ 20.

2 -الديوان، ص37.

3 -المصدر نفسه، ص37.

4 -المصدر السابق، ص111.

لا تغرّنك الحيـــا ة فموجودها عـــدمْ
ليس في البرق متعةٌ لا مرئ يخبط في الظلم[1]

ويصر على تصويرها، وإظهار حقيقتها، مؤكدا زوالها وأفولها، مبينـا بخـل الـدهر واضطرابه، داعيا إلى تقوى الله والاستعداد ليوم الحساب فيقول:

جملة الدنيا ذهابُ مثلُ ما قالوا سرّابُ
والذي منها مشيد فخرابُ ويبـاب
وأرى الدهر بخيلا أبدا فيه اضطراب
سالب ما هو معطٍ فالذي يُعطى عذابُ
وليوم الحشر إنعام سؤال وجـواب
فاتق الله وجنّب كلّ ما فيه حساب[2]

وهكذا يدعونا الشاعر إلى الإعراض عن الدنيا لأنها فانية، مستمدا معانيه وألفاظه من كتاب الله جل جلاله لأنه غذاء روحه وفكره: "وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا"[3]. وقد اتخذ هؤلاء الشعراء من ذم الدنيا والتحذير من فتنتها سبيلا للوعظ، فدعوا إلى اتخاذها دارا للعمل والعبادة والتقوى، ومن ذلك نذكر قول أبي الوليد الباجي:

تبلّغ إلى الدنيـا بأيسـر زاد فإنّك عنها راحلٌ لمعـاد
وغضّ عن الدنيا وزخرف أهلهـا جفونك وأكحلها بطول سُهاد
وجاهد عن اللذات نفسك جاهدا فإنّ جهاد النفس خيرُ جهـاد
فما الدنيا بدار إقـامـة فيعتدّ من أغراضها بعتـاد

---

1 -ابن بسام: الذخيرة، ق1، مج2، ص884.
2 -المصدر نفسه، ص889.
3 -الإسراء/ 13.

وما هي إلا دارُ لهوٍ وفتنــــــــــــةٍ وإن قصارى أهلها النفــــــاد[1]

وهكذا يعبر الشاعر عن نظرته إلى الحياة والموت، هذه النظرة المتشبعة من العلم الصادق بمنهاج الله جل جلاله -قرآنا وسنة، لذلك فهو يحذر من الدنيا وزخرفها، لأنها دار لهو وفتنة ومصير أهلها الموت، قال تعالى: إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ... [2]، لذا فلا بد من مجاهــدة النفس لصرفها عن الهوى وحملها على التفكير في الدار الأخرى ونعيمها، لأنه الكثير الدائم، وهذه حقيقة مستوحاة من القرآن الكريم: "قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا"[3] ، لذا فمن عرف الدنيا أعرض عنها غير نادم، ومن جهل حقيقتــها أقبــل عليها متهافتا، وفي ذلك يقول ابن سارة:

بنو الدنيا بجهل عظموهـــا فجلّت عندهم وهي الحقيرة

يهارش بعضهم بعضا عليها مهارشة الكلاب على عقيرة[4]

وممن ذموا الدنيا أيضا ورغبوا في الآخرة، ابن السيد البطليوسي، ومما قاله:

وما دارنا إلا موات لو أننا نفكر والأخرى هي الحيوان

شربنا بها عزا بدون جهالة وشتّان عزّ الفتى وهـــــوانُ[5]

إذا فالدنيا دار هوان، والآخرة دار عز، ومن عرف هذه الحقيقة أقبل علــى الأعمــال الصالحة، وقد استوحى الشاعر هذه الفكرة من القرآن الكريم: "وَإِنَّ الدَّارَ الْــآخِرَةَ لَهِــيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ"[6] ، وإن كان القرآن قد قرر هذه الحقيقة، فإن العقلاء، والحكماء

---

1 -الذخيرة، المصدر السابق، ق 2، مج1، ص103.

2 -محمد/ 37.

3 -النساء/ 77.

4 -الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء المغرب والأندلس، 1971، ص331.

5 -المصدر نفسه، ق3، ص480.

6 -العنكبوت/ 64.

قد أدركوها بحسن بصيرتهم منذ سالف العصور، و لم يتوان شعراء الزهد عن التذكير بالآخرة قصد النصح والإرشاد، وقد استقى شعراء الزهد في الأندلس معانيهم من تعاليم دينهم الحنيف فكان موضوع ذم الدنيا والدعوة إلى الزهد فيها من الموضوعات الرئيسية والخصبة لملاءمته لغرض النصح والتوجيه، وحق لمن عرف حقيقة الدنيا أن يتقي الله، خالق الحياة والموت، والذي أحاطت قدرته بكل شيء، لذا جاء تحذيرهم من الدنيا مقرونا بالإنذار من الحساب والعقاب، واعتمدوا على أسلوب الترغيب والترهيب في عرض أفكارهم.

كما أن الحض على القناعة والكفاف من موضوعات شعر الزهد أيضا، فقد ذموا الغنى، واتخذوه وسيلة من وسائل التحذير من الدنيا، لأن المال عرض من أعراضها الزائلة، ومهما بالغ الإنسان في اكتنازه وادخاره فإنّه لن ينتفع بشيء منه بعد موته، وكانت هذه الأفكار إسلامية في معانيها ولغتها، ومن الشعراء الذين تناولوا هذه الفكرة السميسر حيث قال:

دع عنك جاها ومالا ... لا عيش إلاّ الكفافُ
قوت حلال وأمنٌ ... من الردى وعفاف
وكلّ ما هو فضلٌ ... فإنّه إسراف[1]

وفي النهي عن الغنى يقول أبو إسحاق الإلبيري:

فمن الغنى ما قد يضرّ بصحابه ... والفقر عند الله ليس بضائر[2]

وهذه الفكرة مقتبسة من قوله تعالى: "حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ

---

1 -الذخيرة، المصدر السابق، ق2، مج1، ص891.

2 -المصدر نفسه، ص892.

يَجْأَرُونَ"[1] ، والقناعة من أهم عوامل الزهد، لأن الإنسان الذي يعود نفسه على الرضى ويحملها على القناعة، يتلخص من أدران الطمع والحسد، وحياة المسلم حياة نقية مستقيمة بعيدة عن البغي والعدوان، خالية من الفحش والغيبة والكبر، إنها حياة طاهرة، رسم معالمها الدين الإسلامي ووضع لها نظاما اجتماعيا سديدا يكفل للبشر حياة كريمة تليق بإنسانيتهم.

ولعلّ شعراء الزهد قد استشعروا هذه الحقائق، فتحملوا رسالة الدعوة بالكلمة الطيبة التي اتخذوها سلاحا لمحاربة الفساد، فجاء شعرهم دينيا دنيويا، وأبرز سماته تعبيره عن الجانب العقدي الذي استمدوا منه نظرتهم وفلسفتهم في الحياة والموت، فجاءت نظرتهم إسلامية، تنم عن تشبعهم بالثقافة الإسلامية وتمسكهم بالكتاب والسنة ومحافظتهم على انتمائهم إلى الأمة العربية، ويتجلى ذلك من خلال تمسكهم بالموروث القديم في بناء القصيدة وأوزانها الخليلية، كما اعتمدوا في صورهم على الذاكرة الواعية أكثر من اعتمادهم على الخيال الابتكاري، فجاءت صورهم جاهزة، مستقاة من الواقع والبيئة.

وتأثرهم بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف يظهر من خلال لغتهم وأسلوبهم، وأفكارهم، فاللغة سلسلة بسيطة تبعث الراحة والطمأنينة والدفء في النفس، وأسلوبهم يعبر عن انتمائهم إلى المدرسة الربانية التي تتخذ الكلمة سلاحها لدرء الفساد، والموعظة الحسنة نهجا للإصلاح والقرآن الكريم والحديث الشريف مدرسة تعلمهم وتلقنهم كل ذلك.

1 -المؤمنون/ 65.